زُبَيْدَة في مكة

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الأفياء
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الصحابة
للتراث
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

زبيدة في مكة

الأميرةُ بنتُ الأمراء:

زبيدةُ بنتُ جعفر المنصور زوج هارون الرشيد كانت: «أعظمَ نساءِ عصرِها دينًا وأصلاً وجمالاً وصيانةً ومعروفًا»[1].

وزبيدةُ سيدةٌ جليلةٌ كريمةُ اليد، ذات يدٍ طُولى في الحضارة والعمران والتاريخ والعطف على الأُدباءِ والشعراءِ والأطباءِ، ومن ذواتِ العقلِ والرأي والفصاحةِ والبلاغةِ.

وزبيدةُ هي أميرةٌ بنتُ أميرٍ أبوها أبو جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، هاشمية من ال بيت رسول الله ﷺ.

وتُعَدَّ زبيدةُ من النساءِ ذواتِ الحسبِ والنسبِ لمالها من محارمَ وأقاربَ على درجةٍ عظيمةٍ من الحسبِ والمالِ والجمالِ، فأبوها جعفر المنصور، وجدُّها المنصور، وأخوها السفَّاح، وزوجُها هارون الرشيد، وعمُّها المهديُّ ابن المنصور أمير المؤمنين، وابنها الأمين بن هارون الرشيد، وأبناء زوجها جميعًا أمراء، وهم المأمون والمعتصم، والواثق والمتوكل[2].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٤).

(٢) «صبح الأعشى» (١/ ٤٤٠).

وزوجُها الرشيد خليفةٌ سلّم عليه بالخلافة عمُّه وعمُّ أبيه وعم جدِّه، سلم عليه سليمان بن المنصور، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي، وعبد الصمد بن عليٍّ عمّ جده أبي جعفر المنصور.

كان اسمها أمَةُ العزيز، وكان جدها المنصور (أبو جعفر المنصور) يحبها حبًا شديدًا، وكانت شديدةَ التعلُّقِ به، فكان يلاعبها ويداعبها كثيرًا فسماها «زُبيدة» لبضاضتها ونضارتها، ففي طفولتها كانت بَضَّةً بيضاءَ مملوءةَ الجسد، تبدو عليها النضارةُ والجمال.

قضت زبيدةُ بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور طفولتها في قصرِ «الرصافةَ» الذي بناه جدُّها المنصور لعمِّها المهدي[1].

الزواج المبارك:

كبرت زبيدةُ بنت جعفر «أَمَةُ العزيز» كما كان يحلو لبعضهم أن يُطلقَ عليها، وأصبحت فتاةً جميلةً، إذا وقع بصر شاب عليها أخذته من شدَّة جمالها ونضارتها، وكان ابن عمها هارون الرشيد يلمحها أحيانًا عندما يزور قصر الرصافة وكثيرًا ما ذهبت بصحبة بنات بني العباس الهاشميات إلى قصر الخلد في مناسبة عائلية تجمع الفتيات والفتيان أبناءَ العمومة، وكان هارونُ الرشيدُ شابًا أبيضَ، طويلاً، جميلاً، مليحًا، فصيحًا، تتمناه كلُّ فتياتِ البيت الهاشميِّ العباسيِّ العريق كان يحب العلم، والأدب، ويحب أهلَ العلم، ويعظم حُرمات الإسلام، مشهود له بالإستقامة، وذكر المؤرخون أنَّه كان يُصلِّي كلَّ يوم مئة ركعةٍ إلى أن فارق الحياة[2].

---

(١) «تاريخ الطبري» عام ١٥١ هـ (جـ٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/ ٢١٤).

وكان هارون الرشيد إذا حجَّ أحَجَّ معه مئةً من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج - بسبب جهد أو غزوة، أحجَّ في كل سنة ثلاث مئة رجلٍ بالنفقةِ الكاملةِ، والكسوةِ الظاهرةِ.

وكان هارونُ الرشيدُ شابًا فتيًّا حينما فاتحه أبوه الخليفة أمير المومنين المهديُّ في الزواج، فسأل هارون أباه وقد ارتجف قلبُه، وخارت قواه خوفًا من أن يختار فتاةً غير فتاته التي اختارها قلبُه وضمها فؤاده وأصبحت حلمَهُ الذي يحلم به كلَّ يوم، فسأله قائلاً: ومن هي يا أبي؟ فقال المهدي: لقد اخترت لك بنت عمك زبيدةُ.

وكاد هارون يطير فرحًا عندما سمع اسم زبيدة فوافق على الفور واستعد القصرُ العباسيُّ كلُّه الذي بقصر الخلدِ على ضفاف نهرِ دجلةَ في العراق.

وفي ذي الحجة سنة ١٦٥ هـ أُقيمت الزيناتُ في قصر الخلدِ وانْخَرَطَ الناسُ في مواكبِ الفرحِ والسرورِ، سعداءَ لسعادةِ أميرهم الشاب هارون الرشيد وأعرس هارونُ الرشيد بعروسه زبيدة التي حوَّلَتْ قصر الخلد إلى لؤلؤةٍ مضيئةٍ من الأضواء والألوان وقد احتشد الناس في قصر الخلد لمشاركة أميرهم الشاب فرحَتَه فجاءوا من كلِّ البلاد وحشدوا من الآفاق ووزع عليهم الأميرُ الأموالَ ولم يُرَ في الإسلامِ مثلُ هذا العرسِ الضخم، وتحدَّث المؤرخون عن النفقةِ في هذا اليوم من بيتِ مالِ أمير المؤمنين المهديِّ خاصةً وكانت كبيرةً سوى ما أنفقه هارونُ من مالِه الخاص.

مع هارون الرشيد:

أحبت زبيدةُ زوجَها هارونَ الرشيدَ حبًّا عظيمًا لما كان عليه من حسنِ الخُلق وجمالِ الخَلْقِ، وكرمِ اليدِ ورجاحةِ العقلِ، فجعلت تهيئ له كلَّ العواملِ التي تفتقدها واصلةً به إلى عرش الخلافة.

ولم يمض عامٌ على هذه الأيام الجميلة وهذا الزواج السعيد المبارك حتى ولدت له محمدًا الأمين، ولما ولدت محمدًا الأمين تسابق الشعراءُ إلى مدحه والترحيب به، حتى قال أحدهم:

لله درُّك يا عقيلةَ جعفرٍ ○■○ ماذا ولدت من النَّدى والسؤددِ
إن الخلافةَ قد تبيَّن نورُها ○■○ للناظرين على جبينِ محمَّدِ

فأمر الرشيدُ للشاعرِ بثلاثة آلاف دينارٍ، وأمرت زبيدةُ أن يُحشى فوهُ جوهرًا فكانت قيمته عشر آلاف دينار.

وقد تمسكت زبيدةُ بدينها الحنيف أشدَّ التمسك، حتى قيل إنَّه كان لها مائةُ جاريةٍ يحفظن القرآن، ولكلِّ واحدةٍ وِرْدُ عشر القرآن، وكان القرآن يُسْمَعُ في قصرها كدويِّ النحلِ من كثرة قراءةِ القرآنِ وتلاوتِه[1].

ابني خليفة:

كان لهارون الرشيد ابنٌ آخرُ غير محمد الأمين ابن زبيدة وكان اسمه عبد الله المأمون، وكان الرشيد يحبهما حبًّا متساويًا، فيما كانت زبيدةُ تودُّ أن يكون ابنُها الخليفةَ القادمَ لبني العباس، ولذلك فقد كلَّفت الإمام الكسائي عالم القراءات وأحد قرَّاء القران السبعةَ بأنْ يُعلِّم ويؤدِّب ابنها الأمين وكذلك كلَّفه هارون الرشيد بتعليم وتأديب

---

(١) «وفيات الأعيان» (جـ٢، ص٣١٤) ترجمة رقم ٢٤٢.

أخيه عبد الله المأمون، وكان الكسائي يُشدِّدُ عليهما في الأدبِ ويأخذ بهما أخذًا شديدًا وبخاصة محمدًا، فأرسلت إليه جاريته وكانت اسمها خالصة، **فقالت جارية زبيدةُ:**

يا كسائي إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد، فإنَّه ثمرة فؤادي، وقرَّة عيني، وأنا أرقُّ عليه رَقَّةً شديدة.

فقال الكسائي لخالصة جارية زبيدة: إن محمدًا مرشَّحٌ للخلافة بعد أبيه هارون، ولا يجوز التقصير في تأديبه.

فقالت خالصة: إنَّ لرَقَّة السيِّدة سببًا أنا مُخْبِرتُك به.

إنها في الليلة التي ولدته أُرِيَتْ (أو رأت) في منامها كأن أربع نسوةٍ أقبلن إليه، فأحطن به عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه.

فقالت التي بين يديه: مَلِكٌ قليلُ العُمر، ضيقُ الصَّدر، عظيمُ الكبر، واهي الأمر، كثيرُ الوزر، شديدُ الغَدْر.

وقالت التي من وراءه: مَلِكٌ قَصَّاف، مبذِّرٌ متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف.

وقالت التي عن يمينه: ملكٌ ضخم، قليل الحِلم، كثير الذنب، قطوعٌ للرحم.

وقالت التي على يساره: ملكٌ غدَّار، كثير العثار.

ثم بكت خالصةُ جاريةُ زبيدةَ من هذه الرؤيا التي أفزعت سيدتها بما جاء فيها عن ابنها التي ترجو أن يكون خليفةً للمسلمين بعد أبيه هارون الرشيد.

وقالت للكسائي: يا كسائي، وهل يُغني الحذر؟[1].

وذات يوم سمعت زبيدةُ أنَّ الرشيد أعطى البيعةَ لابنه عبد الله المأمون ليصبحَ وليًّا لعهده ولم يُعطه لابنه محمد الأمين ابن زبيدة، فما سمعت بذلك اغتمَّتْ غمًّا شديدًا، وأخذتها العزة والغضب فمضت إلى مجلس زوجها هارون الرشيد تعاتبه في ذلك أشدَّ المعاتبة، وتؤاخذه أعنفَ المؤاخذة.

فقال الرشيد: ويحك إنَّما هي أمةٌ محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوقًا بعُنقي، وقد عرفتِ ما بين ابني وابنك، ليس ابنُكِ يا زبيدةُ أهلاً للخلافة (فلا يصلح لها) ولا يصلح للرعية.

فقالت في غضب: ابني والله خيرٌ من ابنك وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فيه، أسخى من ابنك نفسًا، وأشجع قلبًا.

فقال هارون الرشيد: ويحك إنَّ ابنَك لأحبُّ إليَّ - إنني أحبه كثيرًا - إلاَّ أنها الخلافةُ لا تصلح إلاَّ لمن كان أهلاً لها، وبها مستحقًّا، ونحن مسؤلون عن هذا الخلقِ، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقي اللهَ بوزرهِمْ وننقلبَ إليه بإثمهِمْ، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنكِ.

جلستْ زبيدةُ إلى جوار زوجها أمير المؤمنين هارون الرشيد، ثم دعا ابنه عبدا الله المأمون، فلما وصل إلى باب المجلس سلَّم على أبيه هارون الرشيد، ووقف طويلاً وقد طأطأ برأسه، وأغضى ببصره، ينتظر الإذن حتَّى ثَقُل على قدميه من طول الوقوف، ثم أذن

---

(١) «الأخبار الطوال» للدنيوري (٣٨٨).

له هارون الرشيد بالجلوس فجلس، فاستأذنَ بالكلامِ فأذن له فتكلم فقال: الحمد لله أن مَنَّ عليَّ برؤيتك يا أبي، ثم استأذنه في الاقترابِ منه، فاقترب منه، وجعل يُقبِّلُ أسفلَ قدميه، ويقبل باطنَ راحتيه، ثم أنثنى ساعيًا إلى زبيدةَ، فأقبل على تقبيل رأسها، ثم انثنى إلى قدميها، ثم رجع إلى مجلسه، فحمد الله إليهما فيما مَنَّ به عليها من رضى أبيه عنها، وحُسْنِ رأيه فيها، ويسأله العونَ لها على برِّه، وأداءِ المفروضِ عليها من حقِّه، ويرغب أن يوزعها شكره وحمده.

فقال الرشيد لابنه المأمون وزبيدة تجلس إلى جواره؛ يا بني أُريد أن أعهد إليك عهدَ الإمامة، وأُقْعِدُكَ مقعدَ الخلافة، فإني قد رأيتك أهلاً لها، وبها حقيقًا.

فبكى عبد الله المأمون، وصاح منتحبًا يسأل الله العافية لأبيه والعافية من ذلك، ويرغب إليه أن لا يريه فقدَ أبيه أو موتَه.

فقال الرشيد متوسلاً بأن يهدأ ويسمعَ: يا بني أني أعرفُ ما بي، وأنت أحقُّ، وسلِّم الأمر لله، وأرض به، وأسأل العون عليه، فلابَّد من عهدي يكون في يومي هذا.!!

فقال عبد الله المأمون لأبيه الرشيد: يا أبتاه أخي أحقُّ منِّي، وابن سيدتي (يقصد زبيدة) ولا أخال إلاَّ أنَّه أقوى علي هذا الأمر منِّي، وأشد استطلاعًا عرض اللهُ لك ما فيه الرشادُ والخلاصُ، وللعباد الخيرُ والصلاحُ.

ثم أذن له هارونُ فقام خارجًا.

في هذه الأثناء كانت زبيدة صامتةً لا تتكلم، فدعا هارون الرشيد بابنه محمد الأمين، فأقبل يجر ذيلَهُ، ويتبختر في مشيته،

فمشى داخلاً بنعله قد أُنسي السَّلاَم، وذهل عن الكلامِ نخوةً وتجبُّرًا وتعظُّمًا وإعجابًا، فمشى حتى صار مستويًا مع أبيه على الفراشِ.

فقال هارونُ: ما تقول أي بني، فإني أُريد أن أعهدَ إليك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أحقُّ بذلك منِّي، وأنا أسنُّ ولدِك، ابنُ قرةِ عينك.

فقال هارون: أخرج يا بني.

ثم نظر إلى زبيدة وهو طريح فراشه وقال: كَيْفَ رأيت ما بين ابني وابنك؟

فقالت في إصرار: يا أميرَ المؤمنين، ابني أحقُّ بما تريد، وأولى بما لديك.

فقال هارون: فإذا أقررت بالحقِّ، وانصفت ما رأيت فأنا أعهد إلى بني ثم إلى ابنك بَعْدُ، فكتب عهد عبد الله المأمون، ثم محمد الأمين بَعْدَهُ.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت امرأةً عاقلةً حكيمةً قويةَ الشخصيةِ، وقد تعرضت لموقفٍ عاطفيٍّ شديد يُعَدُّ بمثابة امتحان وابتلاءٍ لها في الوقتِ نفسه وعليها أن تكونَ قويةَ النفس والإرادةِ في مواجهة هذا الموقفِ، فقد بايعَ هارونُ الرشيدُ ابنه عبد الله لمأمون ومن بعده يكون أخوه محمد الأمين وليًا لعهده، فلما مات الرشيد خرج محمد الأمين على أخيه ونقض البيعة، وكان القتالُ بينهما وكادت الفتنة أن تعصف بالأُمَّة، حتى قُتل الأمين، ولما قُتل الأمين ابنُ زبيدةَ دخل عليها من يقول: ما يجلسك وقد قُتلَ أميرُ المؤمنين محمدًا.

فقالت: ويلك ما أصنع؟

فقال: تخرجين فتطلبين بثأرِه، كما خرجت عائشةُ تطلب بدمِ عثمانَ.

فقالت: ما للنساء وطلب الثأرِ ومنازلةِ الأبطالِ[1]. وهذا يدل على رجاحة عقلها.

ثم أمرت بثيابها فسوِّدت، **وقالت**: إنَّ لهما يومًا يجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لهما.

ولما دخل المأمون بغداد قالت له: أُهنيك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنًا خليفةً، لقد عُضت ابنًا خليفةً لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وامتاعًا بما عوَّض[2].

أُحضر ولو كلُّ ضربةٍ بدينارٍ:

ومن أعمالها الجليلة التي تركتها وأنتفعَ بها المسلمونَ خيرَ انتفاع، أنها سقت أهلَ مكةَ الماءَ، بعد أن كانت الشربةُ الواحدةُ أو الرَّاوية بدينار، وأسالت المياهَ عشرةَ أميال، بشقِّ الجبالِ ونحت الصخورِ حتى سرَّبت الماءَ وغلغلتْهُ من الحلِّ إلى الحرم، ولما قال لها عاملُها ووكيلُها: أنَّ هذا العمل يُلزمك نفقاتٍ كثيرةً.

فقالت: أحفر ولو كانت كلُّ ضربةِ فأسٍ بدينار.

وقد مهَّدت الطريقَ للماء في كلِّ خفضٍ ورفع وسهلٍ وجبلٍ ووعرٍ، وعُرفت العين «بعين زُبيدة» أو عين الشماس، وكان جملةُ ما أنفقت على هذه العين مما ذكره المؤرخون ألف ألف وسبعمائة ألف دينار (مليون وسبعمائة ألف دينار).

---

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (٣/ ٤٨٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (جـ٢، ص٣١٦).

وظلت آثارها باقيةً ومشتملةً على عمارةٍ عظيمة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منًى من مكةَ، وكان الماء الذي جلبته لمكَّةَ بعينها ينزل إلى موضعٍ تحت الأرض عميق، ذي درج كثير جدًا، لا يُوصل إلى قراره إلاَّ بهبوط كالبئر، يفزع المرء إذ نزل فيه وحده نهارًا فضلاً عن الليل[1]. وبلغت نفقاتها في بعض حجاتها ألف ألف دينار، وبلغت نفقتُها في ستين يومًا أربعةً وخمسينَ ألفَ درهم، فرفع إليها وكيلها حسابَ النفقةِ، فنهته عن ذلك، وقالت: ثواب الله بغير حساب.

أيام مع هارون الرشيد:

كانت زبيدةُ أمُّ الأمينِ زوجةً صالحةً مخلصةً لزوجها هارون الرشيد. وكان لها مواقفُ جليلةٌ، ومشاهدُ سارة، تدل على ذكائها وفطنتها وحبِّها لزوجها، وكانت هذه المواقفُ طريفةً طرافةً عظيمةً نذكر منها.

أيهما أطيب:

الفالوذجُ طعامٌ حلو يُسوَّى من لب الحنطة (الذرة) والقمح وهو طعام فارسي الأصل انتقل إلى العرب، والفالوذج طعام طيِّبٌ حلوُ المذاقِ وهناك طعام آخر يسمي اللّوزينج طيِّب حلو المذق أيضًا. وذات يومٍ اختلف الرشيد وزبيدة في اللوزينج والفالوذج أيهما أطيبُ فمالت زبيدةُ إلى تفضيل الفالوذج، ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج وتراهنا على مئة دينار، فأحضر أبا يوسف القاضي، وقالا له: يا يعقوب قد اختلفنا في كذا على كذا وكذا فاحكم فيه، فقال:

---

(١) «أعلام النساء» (٢/ ٢٧).

يا أمير المؤمنين ما يُحكم على غائبٍ (وهو مذهب أبي حنيفة) فأحضر له إناءين أحدهما فيه فالوذج، والآخر فيه لوزينج، فجعل أبو يوسف يأكل من الفالوذج مرَّةً ومن اللوزينج مرَّةً أُخرى، ثم يعود إلى هذ مرَّةً وإلى ذاكَ مرَّةً أُخرى، وفكرَّ إنْ حكم للرشيد لم يأمنْ غضبَ زبيدةَ، وإنْ حكَمَ لزبيدةَ لم يأمن غضب الرشيد، فلم يزل يأكُل حتى نصَّفَ الإناءيْنِ - أي جعلهما في النصف - **فقال له هارون الرشيد:** إيه أبا يوسف؟

فقال ابو يوسف: يا أمير المؤمنين، ما رأيتُ خصميْن أجدلَ منهما، كلَّما أردت أن أُسجِّل لأحدهما أدلى الآخر بحجَّتِهِ وقد حِرتُ بينهما.

فضحك الرشيد، وأعطاه المئة دينار، وانصرف مشكورًا.

خلاف في بيت من الشعر:

نسوق هذا الموقف كما سقنا حديث الفالوذج واللوزينج سابقًا لنتبيَّن مدى السعادة التي كانت تعيشها زبيدةُ مع زوجُها هارون الرشيد، وقد كان الرشيدُ يحبُّ الشعراءَ ويجلُّهم وكذلك زبيدةُ، وفي مجلسٍ من مجالسهما الدافئةِ وقع بينهما خلاف في بيت من الشعر هو:

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَرٌ ○■○ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فكان الرشيد يقول (يحيين قتلانا) وزبيدة تقول (يجنن قتلانا) فتراهنا وتخاطرا على ذلك بألفي دينار، ودعوا خادمًا لهما يُسمى مسرورًا، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل مَنْ ببغدادَ مِنْ أهلِ العلمِ. فإن صوَّب قولَ الرشيدِ أعطاه ألفًا، وإن صوَّب قولَ زبيدة

أعطاه ألفها، فخرج مسرور بالشموع يطلب من يفتيه في ذلك فَدُلَّ على الكسائي، وكان قريبَ عهدٍ بالقدومِ من الكوفة إلى بغدادَ، وكان يأوي إلى مسجد ينام فيه، فَدَخَل عليه مسرور بخيلِه وحشمه، فتحفَّز له الكسائي خائفًا.

فقال مسرور: لا تخفْ، إنَّه بيتٌ أُشْكِلَ علينا ـ واستفتاه مسرور في رهانِ الرشيدِ وزبيدةَ على الكلمتين في بيت الشعر، فصوَّبهما جميعا، فأعطاه الألفين، لصحة الكلمتين، وهذا دليل على مكانة الكسائي اللغوية والأدبية ولذلك جعله الرشيدُ معلمًا لأبنائه الأمين والمأمون[1].

اتزوج عليك يا زبيدةُ:

وتتواصل طرائف زُبيدةُ الأدبيَّةُ والعلميَّةُ والفقهيَّةُ مع زوجها هارون الرشيد. وهذه الطرفةُ حول الطلاقِ والزواجِ، وكان الرشيدُ يسعى من خلالها إلي معرفةِ مدى حبِّ زبيدَ لهُ، فقال لها يَومًا: أتزوَّجُ عليك؟

فقالت زبيدةُ: لا يحل لك أن تتزوَّجَ عليَّ.

قال: بلي.

قالت: بيني وبينك من شئتَ.

قال: ترضين بسفيانَ الثوريِّ؟

قالت: نعم، فوجه إلى سفيانَ الثوريِّ من يُحضرُهُ، ولما حضر سفيانُ الثوريُّ وهو عالمٌ قديرٌ، وفاضلٌ كبيرٌ، له علمٌ وفيرٌ وفقهٌ غزيرٌ.

قال الرشيد: إنَّ زبيدةَ تزعمُ أنَّه لا يحل لي أن أتزوَّج عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ

---

(١) «أمالي المرتضى» (٢٣٥ بتصرف).

وَرُبَاعَ﴾ (سورة النساء: ٣). ثم سكت، **فقال سفيانُ**: تمم الآية. يريد أن يقرأ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (سورة النساء: ٣). وأنت لا تعدل.

فأمر هارون الرشيد بعشرة آلاف درهم، فأبى سفيانُ أن يقبلَها[1].

وفي يوم من الأيام جرى بين الرشيد وبين ابنة عمِّه زبيدة مناظرةٌ وملاحاةٌ في شيءٍ من الأشياء، فقال الرشيدُ لها في عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكنْ من أهلِ الجنَّة، ثم ندم واغتم جميعًا لهذه اليمين، ونزلت بهما مصيبةٌ لتسرُّعِه وعدم إدراكِه في اللحظة أن الطلاق قد وقع أو يمكن أن يكونَ قد وقع.

جمع الرشيدُ الفقهاءَ للتباحث في هذا الأمر الاجتماعيِّ الفقهيِّ الخطير والذي بكلمة مازحةٍ كاد أن يفقدَ بها زوجه وحبيبته زبيدة. وسأل الفقهاء عن هذه اليمينِ فلم يجد منها مخرجًا.

وفي جلسة ضمت الفقهاءَ من سائرِ البلادِ والأمصارِ، تكلم كلُّ الفقهاءِ باستثناءِ واحدٍ منهم هو الليثُ بنُ سعد، مما جعل الرشيد يدعوه ويقرِّبه منه، ويسأله رأيهُ، فطلب من الرشيد إحضارَ مصحفٍ جامع، فأمر به فأُحضر.

فقال الليث بن سعد: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصلَ إلى سورةِ الرَّحمن، فأخذ الرشيد المصحفَ وتصفَّحَهُ، حتى وصلَ إلى سورةِ الرحمنِ، **فقال الليث ابن سعد لهارون الرشيد**: أقرأ يا أميرَ المؤمنين.

---

(١) «الحلية» (جـ ٦، ص٣٧٨).

فقرأ الرشيد فلما بلغ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٤٦). **قال الليث:** قف يا أميرَ المؤمنين هنا، فوقف، **فقال:** يقول أمير المؤمنين والله، فأقسم الرشيد، **فقال الليث:** إنَّك يا أميرُ تخافُ مقامَ الله؟ **قال الرشيد:** إنِّي أخافُ مقامُ لله، **فقال الليث:** يا أميرَ المؤمنين فهما جنتان، وأنت قلت لزبيدة: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنَّة ـ فهما جنتان وليس جنةً واحدةً كما ذكر الله تعالى في كتابه، ففرحت زبيدةُ، **وقال الرشيدُ لليث:** أحسنت والله بارك فيك، ثم أمر بالجوائز لليث، وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد لأنَّه أفتى بالدليل أن يمينه لا يقع على زبيدة ـ وعاد الليث إلى مصر مكرَّمًا.

هذه هي زبيدةُ التي حفرت «عينَ الماء» لتسقيَ حجَّاجَ مكَّةَ فسميت «بعين زبيدة» ـ وهذه زبيدةُ التي تزوَّجها الرشيد عام ١٦٥هـ، واسمها الحقيقي «أَمَةُ العزيز» وغلب عليها لقب زبيدة، لقدكان جدُّها المنصور يداعبها في طفولتها ويقول: يا زبيدة لبضاضتها ونضارتها[1]. فغلب عليه ذلك الأسم.

وقد كانت زبيدة أعظمَ نساءِ عصرِها دينًا وحسبًا وجمالاً وصيانةً ومعروفًا ولقد تركت على طريق الحج مرافقَ ومنافع عمَّت الجميع قرونًا، وهكذا كانت بحقٍ من فضلياتِ النساء وشهيراتِهن[2].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٤).

(٢) «النجوم الزاهرة».